خاطرة

خاطرة: حين يكون الإنسان في أحسن تقويم

أ.د. مجيب الرحمن *

قرأتُ قبل ثلاثة أيام في إحدى مجموعات الواتساب منشورًا عن رجل في الدنمارك قيل إنه امتنع عن تشغيل سيارته نحو شهر كامل؛ لأن يمامة اختارت السيارة الواقفة مكانًا آمنًا, وبنت فيها عشًّا ووضعت بيضتين. ونُسب إليه قوله :ما دامت تسكن فيها وتبني عشًّا لأفراخها, فسأكون عند حسن ظنها.

لا أدري مدى دقة تفاصيل الحكاية, ولكن الصورة, في رمزيتها, استوقفتني طويلًا. يمامة صغيرة لا تعرف صاحب السيارة, ولا تعرف معنى الملكية, ولا ثمن المركبة, ولا ما قد يترتب على تعطيلها من مشقة. كل ما عرفته بفطرتها أن هذا المكان آمن, فوضعت فيه أثمن ما لديها: بيضتين تحملان سر الحياة. أما الرجل, فقد فهم الرسالة التي لم تُكتب, وقَبِل الأمانة التي لم يُطلب منه حملها. تنازل عن شيء من راحته حتى لا يهدم بيتًا صغيرًا احتمى به كائن ضعيف.

وهنا تذكرت قول الله تعالى :"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ", وأخذت أتساءل: هل "أحسن تقويم" هو جمال الصورة, واستقامة القامة, وإحكام الجسد,

---

* الأستاذ والرئيس السابق, مركز الدراسات العربية والإفريقية, جامعة جواهر لال نهرو, نيولهي, الهند.

وما امتاز به الإنسان من عقل ونطق وإدراك؟ لا شك أن ذلك كله من مظاهر التكريم، ولكن أليس لأحسن التقويم معنى أعمق، يتجلى حين يرتقي الإنسان أخلاقيًا إلى مستوى الأمانة التي حمّله الله إياها؟

فالإنسان لا يصبح عظيمًا لمجرد أنه خُلق إنسانًا؛ وإنما تتحقق إنسانيته كلما غلبت الرحمةُ فيه القسوة، والإيثارُ الأنانية، والعفوُ الانتقام، والرفقُ البطش. وليس جمال الإنسان في الوجه الذي يراه الناس، بل في ذلك الوجه الخفي من روحه الذي لا يظهر إلا عندما يكون قادرًا على الأذى فيعفو، وقادرًا على الأخذ فيعطي، وقادرًا على تجاهل الضعيف فينحني لحمايته.

لقد أراد الله للإنسان أن يكون خليفة في الأرض، والخلافة ليست سيادةً مطلقة، وإنما مسؤولية وأمانة وعمران. وقد علّمنا القرآن أن الرحمة والإحسان والعدل والعفو والكرم قيم يحبها الله ويأمر بها عباده. وكلما اتسع نصيب الإنسان منها، اقترب من الصورة الأخلاقية التي تليق بتكريمه؛ وكلما تجرّد منها، بقيت له صورة الإنسان، بينما تراجعت فيه حقيقة الإنسانية.

وما أعمق الفرق بين الأمرين!

فقد ترى إنسانًا مكتمل الجسد، واسع العلم، كثير المال، رفيع المنصب، ولكنه يجرح قلبًا من أجل متعة عابرة، ويهدم حياةً من أجل منفعة صغيرة، ويبطش بضعيف لأنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه. وقد ترى آخر لا يعرفه أحد، ولا تكتب الصحف اسمه، لكنه يؤخر حاجته شهرًا كاملًا لأن طائرًا صغيرًا وثق به.

أيُّهما أقرب إلى "أحسن تقويم"؟

إن امتحان الأخلاق الحقيقي لا يكون دائمًا في المواقف الكبرى. كثيرًا ما تختبئ إنسانيتنا في التفاصيل التي لا يرانا فيها أحد: في طعام نضعه لحيوان جائع، وفي غصن لا نكسره لأن عليه عشًّا، وفي كلمة نمسك عنها حتى لا نؤلم قلبًا، وفي عامل بسيط نحفظ كرامته، وفي خصم نستطيع سحقه فنختار العدل معه، وفي إنسان ضعيف لا نملك منه منفعة ومع ذلك نحسن إليه.

فالرحمة التي لا تنتظر مكافأة هي أصفى أنواع الرحمة.

وقال رسولنا (عليه أفضل الصلوات والتسليمات) وهو النموذج الأعلى للإنسانية: إماطة الأذى عن الطريق صدقة.

ولعل أجمل ما في حكاية اليمامة أن الرجل لم يكن ينتظر منها شكرًا. فاليمامة ستغادر يومًا، ولن تعرف اسمه، ولن تروي لأحد صنيعه. لكنه أحسن إلى كائن لا

يستطيع أن يكافئه، وهنا تبلغ الرحمة درجة عالية من النقاء: أن تفعل الخير لأن الخير يستحق أن يُفعل.

ثم تذكرت تتمة السورة نفسها :"ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ" .وبين "أحسن تقويم" و"أسفل سافلين" تمتد رحلة الإنسان كلها. يستطيع أن يرتقي حتى تصبح قوته رحمة، وعلمه نورًا، وماله عطاءً، وسلطانه عدلًا؛ ويستطيع أن يهبط حتى يصبح العقل الذي كرّمه الله به أداة للمكر، والقوة وسيلة للبطش، والمال بابًا للطغيان.

ولعلنا لا نحتاج إلى البحث بعيدًا عن نماذج هذا الهبوط؛ فحياتنا اليومية مليئة بصور القسوة والخيانة والكذب، والمكر، والأنانية، والجحود واستغلال الضعفاء. والمفارقة المؤلمة أن الإنسان، وهو أقدر المخلوقات على الرحمة الواعية، يستطيع أيضًا أن يكون أشدها قسوة حين يطفئ في داخله نور الضمير.

لهذا بدت لي تلك اليمامة الصغيرة وكأنها لم تبنِ عشًّا في سيارة فحسب، بل طرحت علينا سؤالًا كبيرًا عن معنى الإنسان. والرجل، حين ترك لها سيارته، لم يمنحها مكانًا لبيضتين فقط؛ بل منحنا نحن صورةً بسيطة لما يمكن أن تكون عليه الإنسانية حين تسمو.

فبين "أحسن تقويم" و"أسفل سافلين" لا تقف صورة الجسد، وإنما يقف اختيار الإنسان. وقد تكفي يمامة، وبيضتان، وقلب رحيم، لتذكّرنا بأن أرقى ما في الإنسان ليس ما يملكه من قوة، بل ما يملكه من رحمة حين يكون قادرًا على استعمال تلك القوة.

..... ***** .....